﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

اختبار الله عز وجل للناس بالأعمال الصالحة وفضل الصيام في شعبان

خطبة ألقاها

الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

يوم ٢ شعبان ١٤٣٨ بالمدينة النبوية

[الخطبة الأولى]

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ١﴾ [النساء:١]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوۡلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد: فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، ثم يا عباد الله:

إن الله عزّوجلّ خلقنا وأوجدنا من العدم، وجعلنا بين نقطتين:

- نقطة الميلاد، حيث نخرج من مكان ضيّق، ونحن لا حول لنا ولا قوّة، يقلّبنا الناس كيف يشاءون.
- ونقطة الموت، حيث تخرج الروح، لا يردّها قريب ولا حبيب، ولا يمنع الموتَ عنّا حكيم ولا طبيب، حيث نصبح يقلّبنا الناس كيف يشاءون، لنُدخَل في حفرة ضيّقة، كما خرجنا من مكان ضيّق.

وجعل ما بين النقطتين الحياة الدنيا، التي خلقها سبحانه وخلقَنا لعبادته، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، التي خلقها الله ليختبرنا فيها اختبارًا عظيمًا بالأعمال الصالحة، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك:٢].

الله عزّوجلّ أوجدنا في الدنيا، وخلق لنا الحياة الدنيا، وخلق الموت، ليبتلينا ويختبرنا بالأعمال الصالحة.

وذلك من جهات ثلاث يا عباد الله:

- من جهة العمل الصالح نفسه،
- ومن جهة القصد والإرادة،
- ومن جهة النشاط أو الكسل.

أما الجهة الأولى: فإن الله عز وجل يختبرنا فيها، لأن العمل الصالح لا يكون إلا إذا كان في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ، فلا يأمر بالعمل الصالح إلا ربُّنا سبحانه وتعالى ورسولنا ﷺ.

فيختبرنا ربّنا:

- هل نؤدّي هذا الحقّ، ونقف عند هذا الحدّ، فنجعل الأمر بالعبادة لله عز وجل ولرسوله ﷺ؟
- أم أنّنا -والعياذ بالله- نعتدي في هذا الأمر، فنجعل عبادتنا لربّنا بحسب أهوائنا، فالذي يأمرنا بالعبادة هو الهوى، فنفعل ما أمر به الهوى، ولا نطيع المولى سبحانه وتعالى؟

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص:٢٦]، اتّباع الهوى -ولا سيّما في باب العبادة والتقرّب- سبب للضّلال عن سبيل الله والبعد عن صراط الله، وهو سبب -يا عباد الله- لهلاك العبد، يقول النبي ﷺ: «ثلاثٌ مُهلِكات: شُحٌّ مطاع، وهوًى مُتَّبَع، وإعجابُ المرء بنفسه»، فإذا جعل العبد طاعته وعبادته تبعًا لهواه ومشتهاه، لا لما أمر به مولاه، فقد أوقع نفسه في طريق الضّلالة، وسار في طريق الهلاك.

- أم أنّ العبد يجعل الأمر بالعبادة للعلماء، فيطيع العالم في تحليل ما حرّم الله مع علمه بذلك، ويطيع العالم في تحريم ما أحلّ الله مع علمه بذلك، ويجعل للعالم الحقّ في أن يأمر الناس بعبادةٍ لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ.

وقد عاب الله عز وجل النصارى على فعلهم هذا، فقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، وقد ثبت أنّ عَدِي بن حاتم رضي الله عنه قبل أن يُسلِم أتى النبيَّ ﷺ وفي عنقه صليب من ذهب، فقال النبي ﷺ: «يا عَدِي، ألقِ هذا الوثن من عنقك»، فألقاه، فانتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقال عدي: إنّا ما نعبدهم، فقال

ﷺ: «أوليس يحرّمون ما أحل الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟ قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم».

وجعل الله عز وجل جعلَ إنشاءِ العبادة لعالمٍ من العلماء من الإشراك، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

والنبي ﷺ ذمّ من أحدث حدثًا بهواه، أو بقول عالم من العلماء، بعبادةٍ لم ترد في كتاب الله، أو في سنة رسول الله ﷺ، وحذّرنا من هذا الطريق، فقال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»، وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»، وقال ﷺ: «من رغب عن سنّتي فليس منّي»، وقال ﷺ: «إيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كل محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة».

ويختبرنا الله عز وجل في العمل الصالح من جهة القصد والإرادة:

- هل نبتغي بأعمالنا وجه ربّنا سبحانه وتعالى، نرجو ما عند الله ونخاف عذاب الله، ليس لأحدٍ في نيّتنا نصيب؟ وأولئك هم المفلحون، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، يقول النبي ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما ابتُغي به وجهه، وكان له خالصًا»، فيبتلينا الله؛ هل نحن من هؤلاء المخلصين؟
- أم أنّنا –والعياذ بالله– ممّن تكون عبادتهم لغير الله؛ دعاؤهم لغير الله، نذرهم لغير الله، صلاتهم لغير الله، استغاثتهم بغير الله؟ وأولئك –والعياذ بالله– المشركون شركًا أكبر، لا حظَّ لهم في الإسلام.
- أم نكون –والعياذ بالله– من المسلمين، لكنّهم في أعمالهم الصالحة قد ينظرون إلى مدح الناس، فيريدون مدح الناس، ويحبّون مدح الناس، ويقصدون مدح الناس؟ وذاك الرياء، الذي إذا لم يغلب على الإنسان كان شركًا أصغر، وكان شركًا خفيًّا.
- أم نكون –والعياذ بالله– ممّن يريدون بعبادتهم أمور الدنيا، والأمور العارضة في الدنيا، ولا يغلب ذلك عليهم، وإنّما يكون ذلك عارضًا؟ وهذا من شرك الإرادة الذي هو شرك أصغر.

يختبرنا الله عز وجل بالعمل الصالح في إرادتنا وقصدنا.

ويختبرنا الله عزوجل بالعمل الصالح في مسارعتنا أو بُطئِنا، في نشاطنا أو كسلنا.

يختبرنا الله عزوجل:

- هل نكون سريعين إلى طاعة الله، بطيئين عن معصية الله، مسارعين إلى مغفرة الله، مسابقين إلى مغفرة الله، مسارعين إلى جنّات الله، مسابقين إلى جنّات الله، حريصين على إرضاء الله، نبحث عن العمل الصالح لنكون من أهله، ولنكون من أهل الصفّ الأول فيه؟
- أم أنّنا –والعياذ بالله– نكون بطيئين في طاعة الله، سريعين إلى معصية الله، نسعى إلى إرضاء أهوائنا، ونسعى إلى إرضاء شياطين الإنس والجن؟ عياذاً بالله من الخذلان.

والكلّ مُلاقٍ عمله، ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف:٨-٩].

فيا عبد الله، يا عبد الله! أيقِن من أنّك ستموت كما وُلِدت، وأيقِن ممّا خُلِقت من أجله، فكن من أهله، ولا تُلهِيَنّك الدنيا عمّا خَلقك الله من أجله، واغتنم حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شُغلك، وصِحّتك قبل سُقمك، وغناك قبل فقرك، وقُوّتك قبل ضعفك، وكن –يا عبد الله– من عباد الله المفلحين، واعمل –يا عبد الله– لله عزوجل، فإنّك وربّ الكعبة لا تدري؛ قد يكون هذا العمل آخر عمل لك في الدنيا، وإنّك قد تنتقل بعده مباشرة، وأنت تعلم –يا رعاك الله– أنّ من مات على شيء بُعث عليه، فاحرص –هداني الله وإياك– أن تكون على عملٍ صالحٍ في جميع أحوالك، لعلّك أن تُقبَض على ذلك العمل الصالح.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فيا معاشر المؤمنين:

إنّ من الأعمال الصالحة التي اختبرنا الله عزوجل بها في الدنيا: الصيام، فالصيام عبادة شريفة، شرعه الله عزوجل في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وأكثرَ منها النبيُّ ﷺ، وفضلها معلوم للعموم.

وهي أقرب العبادات إلى الإخلاص، إذ تستوي فيها الخلوة والجلوة، والسرّ والعلن، لأنها عبادة ممتدّة، فلا بد أن يكون الإنسان في يومه في خلوة بنفسه وفي جلوة أمام الناس، في إخفاء وإسرار وفي إعلام أمام الناس، ويستوي صيامه عنده إذا كان في الخلوة وإذا كان في الجلوة، فهو أقرب العبادات إلى الإخلاص، وما على المرء إلا أن يجاهد نفسه قليلاً في هذه العبادة ليكون من المخلصين فيها.

لكنّ الشأن كلّه –يا عباد الله– أنّا نُختبَر بهذه العبادة:

- هل نكون من النشيطين فيها المسارعين إليها؟
- أم نكون من الكسالى عنها؟

وإنّ الاجتهاد في الصيام سنة رسول الله ﷺ وآية عباد الله المفلحين.

وإنّ شهر شعبان الذي دخلتم فيه –يا عباد الله– من أيّام الصيام المباركات، فيُستحبّ للمؤمن استحبابًا مؤكّدًا أن يُكثِر من الصيام فيه، وذلك لأمور عظام ثلاثة:

أما أولها: فهو أنه شهر غفلة، يغفل فيه الناس، لأنّه لم يرد فيه فضل خاص، وهو يقع بين شهرين عُلِم فضلُهما، بين شهر رجب الذي هو من الأشهر الحرم، وشهر رمضان الذي عَلِمَ المسلمون فضله، فيغفل عنه الناس.

وإن من المعلوم من الشريعة أن العمل وقتَ الغفلة يعظم أجره ويزداد فضله، ولذا كانت العبادة وقتَ الفتن أجرُها كأجر الهجرة إلى النبي ﷺ.

وأما الأمر الثاني: فهو أنه شهرٌ تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وخير ما يكون للعبد –يا عباد الله– أن يُرفع عمله إلى الله وهو صائم لربّه.

ولذا –يا عباد الله– لّما سأل أسامة بن زيد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لَمْ أرَكَ تصوم من الشهور ما تصوم من شعبان! فقال ﷺ: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وشهرٌ تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأُحبّ أن يُرفع عملي وأنا صائم».

وأما الأمر الثالث -يا عبد الله- الذي يجعلك حريصًا على أن تُكثر من الصيام في شعبان: فهو فعل حبيبك وقدوتك وقرّة عينك محمد بن عبد الله ﷺ، فمن سنة نبيّنا وإمامنا وحبيبنا ﷺ الإكثار من الصيام في شهر شعبان، فلم يكن نبيّنا ﷺ أكثرَ صيامًا في شهور السنة منه في شعبان.

وقد أخبرتنا أمّنا عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ كان يصوم شعبان كلّه إلا قليلاً، بل قالت: كان يصوم شعبان كلّه، وأخبرت أنّه كان يصوم عامّة شعبان، وأخبرتنا أمّنا أمّ سلمة رضي الله عنها وأرضاها أنّ النبي ﷺ كان يَصِلُ شعبان برمضان، فكان يصوم شهرين متتابعين: شعبان ورمضان.

ولذا قرّر العلماء أنّ من السنة أن يكثر المسلم من الصيام في شهر شعبان، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا حرج أن يصوم المسلم شعبان كلّه، من أوّله إلى آخره، بشرط ألّا يقصد من هذا الاحتياطَ لشهر رمضان، وإنّما يتنفّل بالصيام في شهر شعبان.

والأولى فيما يظهر لي -والله أعلم- ألّا يصوم العبد شعبان كلّه، ولكن يُكثر من الصيام جدًّا، ويُفطِر بعضه، لأنّ هذا هو المعلوم من سنة النبي ﷺ، والغالب أن النبي ﷺ ما صام شهرًا كاملاً إلا شهر رمضان.

فالله الله أحبّتي في الله، قد أنعم الله عليكم فأدركتم شهر شعبان وأنتم في صحّة وخير وقوّة، فاحمدوا الله عز وجل، واشكروه على هذه النعمة، وأحسنوا إلى أنفسكم بالإكثار من الصيام في هذا الشهر، لعلّ الله عز وجل أن يكتب لكم الجنة بسبب صيامكم في هذا الشهر، وأن يعتق رقابكم من النار.

الله الله -عباد الله- في هذه الغنيمة، لا تفرّطوا فيها، ولا تتكاسلوا عنها، بل تسابقوا وسارعوا، فإنّ السلعة غالية، ألا وهي الجنة، وإنّ الثمن المطلوب منكم يسير عليكم يا عباد الله.

فأسأل الله عز وجل أن يُلين قلوبنا جميعًا بذكر الله، وأن يجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، وأن يكرمنا بأن يجعلنا في هذا الشهر من المكثرين من الصيام.

ثم اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن الله أمرنا بالصلاة على رسولنا ﷺ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

فاللهمّ صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وسلّم تسليمًا كثيرًا، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض عنّا معهم بمنّك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

اللهمّ إنّا عباد من عبادك، اللهمّ إنّا عباد من عبادك، قد اجتمعنا في بيت من بيوتك، نقيم فريضة من فرائضك، اللهمّ فارضَ عنّا أجمعين، اللهمّ فارضَ عنّا أجمعين، اللهمّ فارضَ عنّا أجمعين، اللهمّ لا تحرم منّا أحدًا، اللهمّ لا تحرم منّا أحدًا، اللهمّ لا تحرم منّا أحدًا.

اللهمّ أنزل علينا سكينةً ورحمةً ومغفرةً ورضوانًا يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربّنا، إنّ منّا من هو مقيم على طاعات، اللهمّ فتقبّلها منه، وأعظم له الأجر، وثبّته وزده خيرًا يا رب العالمين، وإنّ منّا من هو أسير لمعصية، اللهمّ فَفُكَّ أسره، اللهمّ فَفُكَّ أسره، اللهمّ فَفُكَّ أسره، اللهمّ وارزقه توبة ترضى بها عنه يا رب العالمين.

إلهنا، إنّا ظلمنا أنفسنا ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لنا مغفرة من عندك وارحمنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

إلهنا ارحمنا، إلهنا ارحمنا، إلهنا ارحمنا.

يا ربّنا، يا ربّ العالمين، لا إله لنا سواك، ولا ربّ نرجوه سواك، وإنّ لك عبادًا غيرنا، اللهمّ فارحمنا، اللهمّ فارحمنا، اللهمّ فارحمنا يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربنا، بارك لنا في أعمارنا، وبارك لنا في أعمالنا، وبارك لنا في ذرّيّاتنا، وبارك لنا في ولاة أمرنا.

إلهنا، إنّ عبدك خادم الحرمين الشريفين قد تحمّل همّنا وتحمّل أمرنا، اللهمّ فاشرح صدره، وأَعِنه على أمره، اللهمّ وقرّبه من الحق، وقرّب منه أهل الحق، وأبعده عن الباطل، وأبعد عنه أهل الباطل.

اللهمّ من أراد تغيير بلادنا من عملها بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، ومنعها ما حرّم الله، اللهمّ من أراد تغييرها عن هذا الخير اللهمّ فأبعده عنها بما شئت يا رب العالمين، اللهمّ لا تقرّب من ولاة أمرنا إلا الأخيار يا رب العالمين.

ربّنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله على حبيبنا وسلّم.